الدراسات اللسانية في تفسير "البسملة" في القرون الثلاثة الأولى

عبد الماجد نديم

إن الله تبارك وتعالى نزَّل على عبده محمد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الكتاب الكريم ـ القرآن الحكيمَ ـ هدايةً و رحمةً للعالمين مكْمِلاً دينَه ومُتمّاً نعمَه، مصدِّقا لما قبله من الكتب والرسل. واختار الله لكتابه المجيد البشير النذير لسانا عربيا حسب سنته التي مضت في القرون السالفة، يرسل الرسل وينزّل الكتاب في لسان المخاطبين، ليستفيدوا من كلام الله وكتابه حق استفادته ويقوموا بدورهم بنشر رسالته الخالدة، حتى يتحقّق الهدف ويُنال المطلوب، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢).

والمعلوم أن اللغة العربية لغة العرب ـ مخاطَبي النبي صلى الله عليه وسلم الأوّلين ـ الذين كانوا معتزّين بلسانهم، ومفتخرين بإبانة كلامهم وإعجام الآخرين، وكانت اللغة واستخدامها الأفصح والأبلغ مبلغ افتخارهم واعتزازهم، فطبقا لسنته تبارك وتعالى في إعجاز القوم في مجالٍ هم مفتخرون به، أعجزهم الله تعالى بإنزال الكتاب الحميد بلسانٍ أفصحَ من كلامهم وأبلغَ من شأنهم وأبينَ مما كان في إمكانهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣)، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

١- سورة الأحقاف، الآية: ١٢.

٢- سورة إبراهيم، الآية: ٤.

٣- سورة النحل، الآية: ١٠٣.

٤- سورة البقرة، الآية: ٢٣.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ولما كان القرآن كلاماً عربياً مبيناً، أُنزل على لغة العرب ولسانهم وسننهم في كلامهم، يحتاج كلُّ من أراد التأمُّل في معانيه والتدبّر لمفاهيمه أن يعرف سنن العرب في كلامهم، ويتدبّر في تلك السنن ويتأمّل في دقائقها. فنظراً إلى هذه الحقيقة تصدّى كلٌّ من الأسلاف الكرام والمفسرين العظام للإتقان والتعمق في العلوم التي تفيدهم في فهمه والغوص في معانيه، من الأصوات العربية، وقواعدها ـ من بنية الكلمة إلى بناء الجملة، ودلالة كلماتها وجملها، وأساليب العرب في كلامها من المعاني والبيان والبديع، فتيسّر لهم فهم كلام الله وتفهيمه، وبلغوا فيه ما لم تبلغه سائر الأمم في فهم الكتب المنزّلة عليهم.

وإن كل من تصفّح تاريخ التفسير وجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بعد القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم يعوِّلون على معرفتهم بلغتهم وأساليبهم في الكلام في فهم معاني القرآن.

وكانوا يستدلون على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب، وعلى هذا السبيل جرى التابعون وأتباعهم دون نكير، وفيه تفصيل في تفاسير القرآن و كتب علومه[٥]. فنظراً إلى هذه الأهمية لعلوم اللسان العربي لم يُجز السلف الصالح تفسير القرآن لمن كان علمه بلغات العرب ناقصا من أية جهة حتى منعوا من الكلام فيه من لم يكن عالماً بها كما قال مجاهد: "لا يحلّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[٦]، وقال الإمام مالك: "لا أوتى برجل غير عالمٍ بلغة العرب، يفسِّر كتاب الله إلا جعلته نكالاً"[٧] وقال الإمام الشاطبي في **الموافقات في أصول الشريعة**: "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة"[٨].

وإذا نظرنا وراءنا إلى أعرق تاريخٍ لتدوين التفسير وجدنا المساعي الأولى لفهم معاني القرآن وتفسيره في صورة **مجاز القرآن** و**غريب القرآن** و**معاني القرآن** و**إعراب القرآن** وغيرها من العناوين، وقد أفعم كل تفسيرٍ من هذه التفاسير بالدراسات اللغوية والنحوية والصرفية، وفي هذا الحشد أكبر حجّة

٥- أكبر شهادةٍ على استشهاد الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتبع التابعين بكلام العرب طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهادة على معنى "الأبّ" في القرآن الكريم (وفاكهة وّأبّا)، واستشهد أحد من شيوخ الهذيل بشعر شاعرهم فاطمأنّ عمر رضي الله عنه. وهكذا كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه، أنه إذا سئل عن معنى كلمةٍ استشهد بشعر العرب، وكان يقول: إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب. وفي هذا تفصيل، انظر: الزمخشري، **الكشاف**، دار المعرفة، ٤/ ٢٢٠، ودار إحياء التراث العربي، ٤/ ٧٠٥، والقلقشندي، **صبح الأعشى**، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط ١، ١٩٠٣م، ١/ ٥٦، والسيوطي، **الإتقان لعلوم القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٢٤٢.

٦- بدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ١/ ٢٩٢.

٧- أبو بكر البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢/ ٤٢٥، ٤٢٦.

٨- أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دون تاريخ، ج ٢/ ٦٤.

لما نحن فيه من إثبات أهمية الدراسات اللسانية في تفسير القرآن الكريم. وكان الأوائل من المفسّرين يستعينون بعلوم اللسان العربي في شرح الآيات القرآنية، ولتحقيق هذه المهمة اختر ُ عَت العلوم اللسانية في اللغة العربية، ومما لا شكّ فيه أن علوم اللسان العربي من نحو وصرف ولغة ومعجم وبلاغة وأدب ترجع نشأة كلٍّ منها إلى تفسير القرآن الكريم وتبعاً له إلى جميع علوم الدين؛ ومن ثمّ تغلغلت علوم العربية في صلب علوم القرآن، من قراءةٍ وتفسيرٍ، فهنالك ارتباط قويّ وتلازم وثيقٌ وتآخٍ بين العلوم العربية والعلوم القرآنية، إذ إنه يعسُر على الدارس فصلُ تلك العلوم عن بعضٍ.

وهكذا، إن الواقف على تفاسير القرون الثلاثة الأولى يجدها مليئةً بالمباحث اللسانية من أصول الكلمات ومشتقّاتها، وشكلها وإعرابها، وتصريفها ومعانيها، وقلبها وإبدالها، وأدوات أخرى شغلتْ أهلَ اللغة والنحو والتصريف وعلماء البلاغة والعلوم اللسانية الأخرى. فالتفاسير القرآنية مشتملة على جواهر اللسان العربي وتراثه الغني، ما يغني الباحث عن المعاجم العربية وكتب النحو والتصريف وغيرها من الكتب التي تهتمّ بعلوم اللغة العربية، بل صارت تلك الموادّ اللغوية والنحوية والبلاغيّة وما إليها موضع استفادةٍ للّغويّين والنحويّين والبلاغيّين الذين جاءوا بعد أصحاب تلك التفاسير القيّمة، ولا نبالغ في القول إذ قلنا إن كتب التفسير بفضل اتجاههم اللغوي والأدبي و البلاغي والنحوي وجميع علوم العرب صارت دواوين لغة العرب ودواوينهم.

فنظراً إلى هذه المكانة للعلوم اللسانية في كتب التفسير، وأهمية تلك البيانات اللسانية فيها عند علماء اللغة والأدب، والنحو والبلاغة والمعاجم، يجد الباحث ضرورة الجمع والدراسة لتلك المباحث التي ناقشها علماء التفسير في القرون الثلاثة الأولى الهجرية تحت مظلّة كلمات القرآن الكريم وآياتها، دراسةً تحليليّة مع مقارنة آرائهم، وتوضيح اتفاقهم فيها واختلافهم مع إشارة تأثر وتأثير لهم، لتكون دراسةً أصيلةً ومفيدةً لكل من أراد فهم معاني القرآن الكريم ودراسة مشكلاته اللسانية من أمهات كتب التفسير، والوصول إلى تلك الآراء التي قال بها الأوّلون من المفسّرين الذين كانوا مصادرَ لا في التفسير فقط بل أيضاً في اللغة وعلوم اللسان العربيِّ.

إن ريادة هؤلاء المفسّرين ترجع إلى حبر الأمّة عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، ابن عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس(٩).

٩- انظر:ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، طبعة كلكتا، الهند، ١٨٥٣م، ٤/ ٩١ـ ٩٢.

ثمّ يأتي اسم حليف القرآن الإمام الشهيد زيد بن علي رحمهما الله، هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وكان رحمه الله يكنى بأبي الحسين. وقال فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولا، لقد كان منقطع القرين"(١٠) وقال الإمام جعفر الصّادق رحمه الله ابن أخيه وتِربه: "كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفهمنا في دين الله وأوصلنا للرّحم، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله"(١١).

ومن ثمّ النحوي المشهور صاحب **معاني القرآن** أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء الكوفي، وكان المأمون قد وكَّلَ بالفرّاء ولديه يُلقِّنهما النحو. وورد عن ثعلب(١٢) أنه قال: لولا الفرّاءُ لما كانت عربية، ولَسَقطتْ لأنه خلَّصها(١٣). واللغوي الكبير صاحب **مجاز القرآن** أبو عبيدة معمر بن المثنّى الهروي، هو الإمام العلّامة البَحر، صاحبُ التصانيف. ولد في سنة عشر ومائة، قد كان من بُحورِ العلم(١٤). والنحوي العالم باللغة والأدب أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط أخذ عن الخليل ابن أحمد، ولزم سيبويه حتى بَرَعَ، وله كتب كثيرةٌ في النحو والعَرُوض ومعاني القرآن(١٥). والأديب المفسّر اللغوي المؤرّخ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري نزل بغداد، وصنَّفَ وجمعَ، وبَعُدَ صيته، وقد ولِيَ قضاء الدِّينَوَر، وكان رأساً في علم اللسان العرَبي، والأخبار، وأيام الناس... وإنما هو من كبار العُلاء المشهورين، عنده فنونٌ جمّة وعلومٌ مهمّة(١٦).

وصاحب **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** مصدر كلِّ مصدرٍ في علوم القرآن والتفسير

١٠- تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقريزي، **الخطط المقريزيّة**، دار العرفان، بيروت، بدون رقم الطبعة والتاريخ، ٣/ ٣٣٥.

١١- المرجع نفسه، وجمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، **تهذيب الكمال**، دار الفكر، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٦/ ٤٧٨، وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ١٥/ ٢١.

١٢- هو العلامة المحدّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي، صاحب تصانيف. ولد سنة مئتين ومات في إحدى وتسعين ومئتين. شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ١٤/ ٥- ٧.

١٣- انظر: **سير أعلام النبلاء**، ١٠/ ١١٨- ١١٩.

١٤- انظر: المرجع نفسه، ٩/ ٤٤٥- ٤٤٧.

١٥- انظر: المرجع نفسه، ١٠/ ٢٠٦- ٢٠٨.

١٦- انظر: المرجع نفسه، ١٣/ ٢٩٦- ٣٠٢.

أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد بن كثير الطبري. هو الإمام العلم المجتهد، عالمُ العصر، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمُل طَبَرِسْتان. وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرةَ تصانيف، قلَّ أن ترى العيون مثلَه(١٧).

وكان على هؤلاء المذكورين تعويل من جاء بعدهم من المفسّرين واللغويّين والمعجميّين والنحويّين والصرفيين والبلاغيّين، وكلِّ من كان له أدنى صلةٍ بعلوم القرآن واللسان العربي. وهؤلاء كانوا مجتهدين فيما ذهبوا إليه وأما من جاء بعدهم فقام مقام الراوي عنهم، أو الشارح لكلامهم أو المعلق على أقوالهم وآرائهم، ولو أكثرَ فقام مقام المرجِّح مذهباً على مذهب غيره أو رأياً على رأي آخر، ولو جاء أحد من المتأخرين برأي اجتهادي بدون الإسناد إلى المتقدمين أو الاعتماد عليهم فذاك شاذّ.

وفي هذه المقالة يركز الباحث اهتمامه على "البسملة" وما جاء فيها من المباحث اللسانية العربية في تفاسير القرون الثلاثة الأولى.

كلمة "البسملة" اسمٌ منحوت لـ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهي أوَّل آية من القرآن الكريم تتلى وتكتب قبل كلِّ سورةٍ فيه تبرُّكاً بها، سوى سورة التوبة ذات الرقم ٩ في ترتيب المصحف والمسمّاة أيضاً بسورة البراة، وهي جزءٌ من الآية ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الثلاثين من سورة النمل ذات الرقم السبع والعشرين في ترتيب المصحف.

وأمّا دراستها فنجد في البداية أن آية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تشتمل على خمس كلماتٍ؛ وهي: بـ، اسم، الله، الرحمن والرحيم.

تعثر في تفاسير القرون الثلاثة الأولى الهجرية على دراسةٍ لسانيةٍ لكلِّ كلمةٍ من هذه الكلماتِ الخمسِ. ودُرست هذه الكلمات على مستوى بنية الكلمة وبناء الجملة والدلالة والأسلوب، وأمّا المستوى الصوتي فلا نجد له سبيلاً في تفاسير هؤلاء المفسّرين المذكورين تحت تفسير البسملة إلا قليلاً. وأمّا البحث الأسلوبيّ فيرتكز على ترتيب أسماء الله وصفاته "الله" و "الرّحمن" و "الرّحيم". وأغلبية الأبحاث اللسانية تتشكّل في دلالة الكلمات و بنيتها وبناء الجملة. ويجد الباحث تحت كلِّ كلمةٍ بحثاً على مستوىً واحدٍ وفي بعض الأحيان على مستويين أو أكثر، وفي كثير من الأحيان تكون لهذه الأبحاث صلة مباشرة بالكلمة القرآنية وجملتها وفي بعض الأحيان تكون هذه الصلة غير مباشرةٍ بل يتعرّض المفسّر لذلك البحث استطراداً. ترك الباحث تلك الأبحاث الاستطرادية اتّقاءً من التطويل وإبقاءً على صفحات هذه المقالة.

١٧- انظر: المرجع نفسه، ١٤/ ٢٦٧- ٢٨٢.

ولاستزادة إفادة هذه المقالة من حيث أصول علم الأصوات الحديثة وسدّ فراغ المستوى الصوتي في تفاسير القرون الأولى، قام الباحث بـ: تحليل هذه الكلمات الخمس المذكورة التي تشتمل عليها آية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب قواعد علم الأصوات فونيمياً ومقطعياً(١٨).

أوّل كلمة في البسملة هي: باء الجرّ (بِ)، ذاتُ مقطع (Syllable) واحدٍ، وهو المقطع المنفتح القصير، المشتمل على الفونيمين: صامتٍ وحركةٍ قصيرةٍ (ص+ح) ويمكن تعبيره بـ: (C V) حسب طريقة إنجليزية اتّخذها اللغويون المحدثون، وأمّا نحن فنؤثر الحروف العربية بدل الحروف الإنجليزية.

وأمّا الدراسات اللسانية في القرون الثلاثة حول "باء الجرّ" فتطوّرت عبر الزمن، وبدأت هذه الدراسة من كتاب **مجاز القرآن** لأبي عبيدة، ولم يتصدَّ لهذا الموضوع أحدٌ قبله، حسبما عثرنا عليها من المساعي التفسيرية للقرآن الكريم قبله ومنها **معاني القرآن** للفرّاء. درس أبو عبيدة باء البسملة في تفسيره **مجاز القرآن** ولكنّه أيضاً لم يفصِّل فيه القول بل اكتفى بالذكر أنه الإضمار في قوله تعالى، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فيقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ففيه ضمير مجازه: "هذا بسم الله. أو بسم الله أول كل شيء ونحو ذلك"(١٩). ويقول في مقامٍ آخر: فمجاز تفسير قوله "بسم الله" مضمر، مجازه كأنك قلت: "بسم الله قبل كل شيء وأول كل شيء ونحو ذلك"(٢٠). ثمّ يستشهد بقول عبد الله بن رواحة(٢١) "من مشطور الرجز":

باسم الإله وبه بَدِينا ولو عبَدْنا غيرَه شَقِينا(٢٢)

١٨- المقطع هو الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز النّصويت "غلقاً كاملا أو جزئياً" فهو أبسط وحدة نطقيّة. هو مفهوم غربي فيما يبدو. لم يذكره النحاة العرب ولم يهتموا به إلا أننا نرى في العروض "السبب الخفيف" الذي يقابل المقطع. للتفصيل انظر: طيب البكوش، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م، ص ٧٧.

١٩- أبو عبيدة معمر بن المثنى، **مجاز القرآن**، تحقيق: محمد فؤاد سيزگين، محمد سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر، ط ١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، ١/ ١١، ١٢.

٢٠- المرجع السابق: ١/ ٢٠.

٢١- هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، وقيل أبو عمرو. وكان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وكان أحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد بها، وكانت مؤتة في جمادى سنة ثمان من الهجرة. وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. عز الدين ابن الأثير علي بن محمد الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٤/ ٦٦، ٦٧.

٢٢- وليد قصاب، **ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره**، دار العلوم، الرياض، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٤٢. وهذا الرجز من شعره الذي كان يتمثل به المسلمون في يوم الخندق، وهم يحفرون وينقلون التراب.

فتدلّ عبارة أبي عبيدة أن هنالك إضماراً في "بسم الله الرّحمن الرّحيم" والمضمر هو: "هذا" أو "قبل كلِّ شيءٍ" و "أوّل كلِّ شيءٍ" ونحو ذلك.

في ضوء هذه المقتبسات من كلام أبي عبيدة نلاحظ أنّ أبا عبيدة لم يحدّد نوع الإضمار، هل هو مفرد أو مركّب؟ وهل هو اسم أو فعلٌ؟ ولكنْ من خلال الأمثلة التي أوردها أبو عبيدة في ذكر المضمر نستنبط أنه اسمٌ، والجار والمجرور متعلّقان في موضع رفع مبتدأ أو خبرٌ ومتعلقهما المحذوف مفردٌ أو مركّبٌ. وفي صورة "هذا بسم الله" الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف. وأمّا الشاهد الشعري الذي أورده أبو عبيدة ففيه المقدَّرُ فعلٌ وهو "بدينا". وأمّا مسألة مكان المحذوف فإنه لم يحدِّد مكانه أهو متقدّم أو متأخّر، ولم يصرّح به ولم يفرِّق بين التقدّم و التأخّر فيه من خلال الأمثلة التي أوردها أبوعبيدة لبيان مسألة الإضمار.

وبعد ذلك جاء الأخفش صاحب **معاني القرآن** ولكنه يتصدّ لهذا البحث. ثم جاء ابن قتيبة صاحب **تفسير غريب القرآن** فأشار إلى هذا الإضمار ولكنه لم يصرّح به، فيقول في تفسير "بسم الله": "اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله أو بدأت باسم الله"(٢٣). اكتفى ابن قتيبة بهذه العبارة الموجزة. ولكنّنا نرى في ضوء مثاله الذي ساقه أنه ذهب إلى أن المحذوف فعلٌ وهو متقدّمٌ.

حتى جاء الطبري فتطوّر هذا البحث، وهو درس البسملة بالاستيعاب فذكر هذا الإضمار بشيءٍ من التفصيل، وفيه:

"الباء من "بسم الله" مقتضية فعلا يكون لها جالبًا، ولا فعلَ معها ظاهرٌ، فأغنت سامعَ القائل "بسم الله" معرفتُه بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مُراده قولا إذْ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرًا، قد أحضرَ منطقُه به ـ إمّا معه، وإمّا قبله بلا فصْلٍ ـ ما قد أغنى سامِعَه عن دلالةٍ شاهدةٍ على الذي من أجله افتتح قِيله به. فصار استغناءُ سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظيرَ استغنائه ـ إذا سمع قائلا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: "طعامًا" ـ عن أن يكرّر المسئُولُ مع قوله "طعامًا"، أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدُّم مسألة السائل إياه عما أكل. فمعقول إذًا أن قول القائل إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تاليًا سورةً، أن إتباعه "بسم الله الرحمن الرحيم" تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: "بسم الله" عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله "بسم الله"، وأنه

٢٣- ابن قتيبة، **تفسير غريب القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣٨.

أراد بقِيلِه "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال"(٢٤).

وقد ذكر الطبري هذا الإضمار، ويحتوي كلامه على سبب لهذا الإضمار أو الحذف، ومنطق العقل السليم في السنن الكلامية حول هذا الحذف ـ أيضاً ـ. وحدّد نوع الكلمة المضمرة وهو الفعل، وأمّا مسألة التقديم والتأخير فالأمثلة التي ساقها فهي تُبدي ميله إلى أن الفعل المحذوف متقدِّمٌ، وإن لم يصرح بمكانه في عبارته، وهذا المسلك مثل مسلك ابن قتيبة الذي سبق. وأمّا عن مسألة دلالة الباء في البسملة فقد ذكر الأخفش خلال كلامه عن "الاسم" أنها باء الإلصاق(٢٥).

فمن خلال دراسة هؤلاء المفسّرين السبعة عثرنا على أن باء البسملة لم يذكرها ولم يشر إليها سوى أربعة، وهم: أبو عبيدة، والأخفش، وابن قتيبة و الطبري. والأخفش وحيد من هؤلاء المفسّرين مَن ذكر دلالة الكلمة، وأمّا الثلاثة الآخرون فبحثهم حول الإضمار في "بسم الله" يتلخّص في أن المضمر "اسم" حسبما ورد في عبارة أبي عبيدة و استشهاده، أو "فعل" كما صرّح به الطبري وذهب إليه ابن قتيبة وعليه تدل الرواية التي رُويت عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلى مُحَمَّد رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ: بِسْمِ اللهِ يَا مُحَمَّدُ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ رَبِّكَ، قُمْ وَاقْعُدْ بِذِكْرِهِ"(٢٦).

وأمّا المتأخرون من المفسّرين فمنهم من ذكر الرّأيين المذكورين ومنهم من رجّح رأي الفعل وبه قال. وأسهب المتأخِّرون في بحث باء البسملة فتطرّقوا للبحث عن دلالة الباء و شيءٍ من التطويل في موقعه في الجملة(٢٧).

٢٤- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ/ ، ومؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١/ ١١٤، ١١٥.

٢٥- سعيد بن مسعدة البلخي المعروف بالأخفش الأوسط، **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٢٥، وبه قال سيبويه.

٢٦- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٥.

٢٧- للتفصيل انظر: الزجاجي، **إعراب القرآن**، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، ١/ ١٢، وانظر: تحت تفسير "بسم الله الرحمن الرحيم" النحاس، **إعراب القرآن**، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥هـ، والثعلبي، **الكشف والبيان**، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، والمكي بن أبي طالب المكي القيسي، **مشكل إعراب القرآن**، والماوردي، **النكت والعيون**، وابن سيدة، **إعراب القرآن**، والعكبري، **إملاء ما منّ به الرحمن**، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، وأمّا معنى باء الجرّ فأوّل مفسِّر تصدّى لبيانه بعد الأخفش هو أبو جعفر النحّاس فنقل قول سيبويه قائلاً: قال سيبويه معنى الباء الإلصاق. ثمّ جاء بعده من المفسّرين الذين قالوا في هذه المسألة كثيراً وذكروا له معانيَ.

والكلمة الأخرى في البسملة هي: "اسم"، ذات مقطع واحدٍ ذي فونيمات (Phonemes) أربعة: (ص+ح+ص+ص) أي (c v c c)، وهو المقطع العنقودي(٢٨).

وأمّا في دراسات القرون الثلاثة الأولى فنجد شرحها في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: "إنَّ أول ما نزل به جبريلُ على محمد، قال: يا محمد، قُل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم . قال: قال له جبريل: قل بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله"(٢٩).

وعن الإمام زيد بن علي رحمهما الله: "بسم الله": هو تعظيم الله(٣٠).

يفسّر هذان المفسِّران الإضمار الواقع في "بسم الله" و المعنى المراد للبسملة فقط.

وفي التفاسير التي تلي تفاسير هذين الإمامين الجليلين نجد ثلاثة مباحث حول "اسم" في البسملة، وهي:

١- حذف ألف الاسم في البسملة لفظاً وخطّا.

٢- أصل كلمة "اسم" أو اشتقاقها.

٣- المراد من الاسم: هل الاسم والمسمّى واحد؟

وأمّا المسألة الأولى فحول بنية "اسم": يقول الفرّاء في بيان هذه المسألة في كتابه **معاني القرآن**: "اجتماع القرّاء وكتّاب المصاحف على حذف الألف من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي فواتح الكتب، وإثباتهم الألف في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾"(٣١)(٣٢) قوله: اجتماع القرّاء وكتّاب المصاحف يدلّ على أن الإجماع على حذف ألف الاسم لفظاً وخطّاً، وأمّا السبب لذلك فيجيب عنه: "وإنما حذفوها من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أول السور والكتب، لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ

٢٨- هو مقطع ينتهي بأكثر من صامت.

٢٩- كذا عند الطبري في **جامع البيان**، ١١٥، وقال الطبري: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشرُ بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحّاك، عن عبد الله بن عباس، قال. وكذا في **تفسير ابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، ١/ ٢٥، هو روى عن عَلِيِّ بْنِ طَاهِرٍ، وحدّثه مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ يَعْنِي أَبَا كُرَيْبٍ الْهَمْدَانِيَّ، وباقي السند كما في **جامع البيان** للطبري.

٣٠- الإمام زيد بن علي، **تفسير غريب القرآن**، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤١٤هـ، ص ١٢٠.

٣١- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٢- الفرّاء، **معاني القرآن**، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١/ ١ – ٢.

معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستخفّ طرحها لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وأثبتت في قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾[٣٣] لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكل أو مشرب أو ذبيحة. فخفّ عليهم الحذف لمعرفتهم به... فلا تحذفنّ ألف "اسم" إذا أضفته إلى غير الله تبارك وتعالى، ولا تحذفنّها مع غير الباء من الصفات وإن كانت تلك الصفة حرفا واحدا، مثل اللام والكاف[٣٤]. فتقول: لاسم الله حلاوة في القلوب، وليس اسم كاسم الله فتثبت الألف في اللام وفي الكاف لأنهما لم يستعملا كما استعملت الباء في اسم الله. ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم: أيش عندك، فحذفوا إعراب[٣٥] وإحدى ياءيه، وحذفت الهمزة من "شيء"، وكسرت الشين وكانت مفتوحة، في كثير من الكلام لا أحصيه"[٣٦].

فسبب إجماع القرّاء وكتّاب المصاحف على حذف ألف الاسم في البسملة بسبب شأن العرب الإيجاز والتقليل فيما كثر استعماله، فيطرحون فيه ما وقع في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه. فحسب هذا الشأن هم يحذفون ألف اسم البسملة من الخطّ، ويتبيّن هذا الكلام من قول الأخفش الأوسط: "وحذفت الألف من "بسم" من الخط تخفيفاً لكثرة الاستعمال واستغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط". أي حذفت الألف من الخطّ بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال وللاستغناء عنها بباء الإلصاق. وأمّا لفظاً فبباء الإلصاق وكون الألف حرف زيادة في الكلمة، ويأتي البحث عنه في الفقرة القادمة.

وأمّا حذف الألف في الخطّ فهو فقط بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال، وإن دخل على كلمة "الاسم" حرفٌ آخر مثل لـ، ك، و، من وغيرها من الحروف الجارّة أو العاطفة فثبتت ألف الاسم ولم تحذف، وإن استخدمت كلمة الاسم مضافةً إلى غير هذا الاسم (الله) فتثبت الألف كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٣٧] و ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٣٨]، وكذا يقول الأخفش الأوسط: "فلو

٣٣- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٤- الصفة عند الكوفيين حرف الجرّ والظرف، فالفرّاء هنا يقول لحروف الجرّ صفة.

٣٥- أراد من إعرابه: حركته.

٣٦- الفرّاء، **معاني القرآن**، ١/ ١ - ٢.

٣٧- سورة العلق، الآية: ١.

٣٨- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و ٩٦.

كتبت "باسم الرحمن" أو "باسم القادر" أو "باسم القاهر" لم تحذف الألف"(٣٩).

وأمّا المسألة الثانية: في بنية كلمة "اسم" فالبحث حولها في معاني القرآن للأخفش، وهذا البحث يتصل ببنية الكلمة وأيضاً يمُثِّل البحث الصوتي، وفيه: "والألف في "اسم" ألف وصل، لأنك تقول: "سُميّ" وحذفت لأنها ليست من اللفظ". الألف من "اسم" حذفت بسبب عدم كونها أصلاً في بنية الكلمة والدليل عليه عدمه في التصاريف الأخرى لهذه الكلمة. وإذا لم تكن أصلاً في بنية الكلمة فمن أين ولِمَ أتتْ وأدخلت على هذه البنية حتى صارت وعُدَّتْ جزءاً منها؟ فيجيب الأخفش عن هذا السؤال مبيّناً سبب زيادتها: "وإنما زيدت لسكون الحرف الذي بعدها لما أرادوا استئنافه فلم يصلوا إلى الابتداء بساكن، فأحدثوا هذه الألف ليصلوا إلى الكلام بها. فإذا اتصل (الكلام) بشيء قبله استغني عن هذه الألف"(٤٠). فالسبب لزيادة الألف هو سكون الحرف الذي بعدها وهي: سين، ولما كان البدء بحرفٍ ساكنٍ لا يمكنُ فأحدثوا هذه الألف لنطق الكلمة، فإذا اتصل بشيءٍ قبله، مثل بـ في البسملة فاستغني عن هذه الألف. والمعلوم أن هذا البحث عن الحذف في اللفظ، وأمّا خطًّا فمرّ الكلام عليه في بداية البحث عن الاسم.

وأمّا اشتقاق "اسم" فلم يبحث فيه أحدٌ من المفسّرين الذين نحن بصددهم. وأمّا المتأخرون عنهم، فهم أسهبوا فيه بكثير من التفصيل، وأغلبيتهم انقسمت إلى رأيين: فريق ذهب إلى أن "اسم" مشتقّ من "سما يسمو سمو" و الفريق الثاني يرى أنه مشتقّ من: "وسم يسم وسْماً وسمةً". الأوّل رأي البصريين والآخر رأي الكوفيين، وإن كلام الأخفش يدلّ على أنه يرى رأي الكوفيّين إذ قال في سبب زيادة الألف أنه بسبب سكون الحرف الذي بعدها، وذلك السكون في صورة "وسم يسم وسْماً".

والمسألة الأخرى في "اسم" هي: هل الاسم والمسمّى واحد أيْ هل اسم الشيء هو الشيء بعينه، و الاسم صفة زائدة في بسم الله الرحمن الرحيم والمراد به "بالله الرحمن الرحيم" أم هو غيره؟

وتصدّى لهذه المسألة أبو عبيدة في **مجاز القرآن**، والأخفش الأوسط في **معاني القرآن** والطبري في **جامع البيان**، فالعَلَم الأوّل الذي سبق إلى هذا البحث هو أبو عبيدة إذ قال: "بسم الله إنما هو بالله لأن اسم

٣٩- الأخفش، **معاني القرآن**، ص ١٢٥، ومن الجدير بالذكر أن مكي بن أبي طالب القيسي ذكر في **مشكل إعراب القرآن** له: فإن كتبت بسم الرحمن أو بسم الخالق حذفت الألف أيضاً عند الأخفش والكسائي، وقال الفراء لا تحذف إلا في بسم الله فقط فإن أدخلت على اسم الله غير الباء من حروف الخفض لم يجز حذف الألف عند أحد نحو قول: ليس اسم كاسم الله. وقولك: لاسم الله حلاوة. المكي بن أبي طالب القيسي، **مشكل إعراب القرآن**، ١/ ٥.

٤٠- الأخفش، **معاني القرآن**، ص ١٢٦.

الشيء هو الشيء بعينه"[٤١] واستشهد على ما ذهب إليه بقول لبيد[٤٢]:

إلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلامِ عليكما * ومن يَبْكِ حَولاً كاملاً فقدِ اعتَذَرْ[٤٣]

وإلى المذهب نفسه ذهب الأخفش الأوسط في **معاني القرآن** له، ولا يكتفي بذكر رأيه فحسب بل يضيف إليه سبب ورود كلمة "اسم" وحكمتها في البسملة، فيقول: "اسم صلة زائدة، زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرّك، لأن أصل الكلام بالله"[٤٤]. أي وإن بدئ كلام الله تعالى بعبارة "بالله" مكان "باسم الله"لتشكّل الأمر في كونه القسم أو التبرّك، فزيد "اسم" ليتبيّن أنه للتبرّك لا للقسم.

وأمّا الطبري فيرى بالعكس، وأطال الكلام في ردّ أبي عبيدة فيقول: "وإنما معنى قوله "بسم الله": أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء"، ويذهب إلى أن "الاسم" المضاف إلى الله هو ليس باسم بل هو مصدر بمعنى التسمية[٤٥]. ثم يقول مبيّناً السبب في جواب سؤال ممكنٍ:

"إن العربَ قد تخرج المصادرَ مبهمةً على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمتُ فلانًا كرامةً، وإنما بناءُ مصدر أفعلتُ ـ إذا أخرج على فعله ـ الإفعالُ. وكقولهم: أهنت فلانًا هَوانًا، وكلّمته كلامًا. وبناء مصدر "فعَّلت" التفعيل. ومن ذلك قول الشاعر:

أَكُفْرًا بعد رَدِّ المَوْتِ عَنِّي وبعد عَطَائِكَ المِئَةَ الرِّتَاعَا[٤٦]

٤١- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ١٦.

٤٢- هو لبيد بن ربيعة بن مالك، ويكنى بأبي عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويعدّ من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلامي إلا بيتاً واحداً، قيل هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات. انظر: الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ٥/ ٢٤٠.

٤٣- **ديوان لبيد بن ربيعة**، اعتناء: حمد وطماس، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٥١، البيت من الطويل من قصيدته التي يخاطب فيها ابنتيه لما حضرته الوفاة، ومطلع القصيدة:

تَمَنّى ابنتَايَ أنْ يَعيشَ أبُوهُمَا وهل أنا إلّا منْ ربيعةَ أو مُضَرْ

٤٤- الأخفش، **معاني القرآن**، ١٢٥.

٤٥- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٥- ١١٧.

٤٦- والشعر للقطامي، وهو عُمَيْر بن شيَيْم بن عمرو التغلبيّ، انظر: **ديوان القطامي**، ج. برث، ليدن، ١٩٠٢م، ص٤١. العطاء بمعنى الإعطاء، ولذلك نصب به "المئة". والرتاع جمع راتع: يعني الإبل ترتع في مرعى خصيب تذهب فيه وتجيء.

يريد: إعطائك. ومنه قول الآخر:

وَإن كانَ هذا البُخْلُ منْك سَجيةً لقد كُنْتُ في طَولِي رَجَاءكَ أَشْعَبَا(٤٧)

يريد: في إطالتي رجاءك. ومنه قول الآخر:

أَظُلَيْمُ إن مُصَابَكم رَجُلا أَهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ(٤٨)

يريد: إصابتكم. والشواهد في هذا المعنى تكثُرُ، وفيما ذكرنا كفاية، لمن وُفِّق لفهمه.

فإذا كان الأمر ـ على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادرَ الأفعال على غير بناء أفعالها ـ كثيرًا، وكان تصديرها(٤٩) إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، فبيِّنٌ بذلك صوابُ ما قلنا من التأويل في قول القائل "بسم الله"، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله، قبل فعلي، أو قبل قولي.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: "بسم الله الرحمن الرحيم"، إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، أو أبتدئ قراءتي بتسمية الله. فجُعِل "الاسمُ" مكان التسمية، كما جُعل الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ مكان الإعطاء"(٥٠).

ثم يستشهد بقول ابن عباس المذكور أعلاه، ويستدلّ به على صحّة ما قال هو وفساد ما قال غيره.

وهكذا يستدلّ الطبري بإجماع العلماء على هذه المسألة: أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام "بالله"، ولم يقل "بسم الله"، أنه مخالف ـ بتركه "بسم الله" ما سُنَّ له عند التذكية من القول(٥١).

وفي جواب استشهاد أبي عبيدة بقول لبيد يقول الطبريّ: "قيل له: لو جاز ذلك وصحّ تأويله فيه على ما تأوّل، لجاز أن يقال: رأيتُ اسم زيد، وأكلتُ اسمَ الطعام، وشربتُ اسمَ الشراب، وفي إجماع جميع العرب على

٤٧- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٦، وفي الحاشية: لم أجد البيت. وأشعب: الطاع الذي يضرب به المثل في الطمع المستعر.

٤٨- المرجع السابق: الصفحة نفسها، وفي الحاشية: الشعر للحارث بن خالد المخزومي، وهو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش: شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة، وكان يذهب مذهبه، وتوفي سنة ٨٠هـ. انظر: **الأعلام**، ٢/ ١٥٤.

٤٩- المرجع السابق: ١/ ١١٧، وفي الحاشية: أراد بقوله: تصديرها: "أي جعلها مصادر تصدر عنها صوادر الأفعال، وذلك كقولك: ذهب ذهابًا، فذهب صدرت عن قولك "ذهاب"، ويعمل عندئذ عمل الفعل. وعنى أنهم يخرجون المصدر على وزن الاسم فيعمل عمله، كقولك "الكلام" هو اسم ما تتكلم به، ولكنهم قالوا: كلمته كلامًا، فوضعوه موضع التكليم، وأخرجوا من "كلم" مصدرًا على وزن اسم ما تتكلم به، وهو الكلام، فكان المصدر: "كلامًا".

٥٠- المرجع السابق، ١/ ١١٦، ١١٧.

٥١- المرجع السابق، ١/ ١١٨.

إحالة ذلك ما ينبئ عن فساد تأويل من تأول قول لبيد: "ثمّ اسم السلام عليكما"، أنه أراد: ثم السلام عليكما، وادِّعائه أن إدخال الاسم في ذلك وإضافتَه إلى السلام إنما جاز، إذ كان اسم المسمَّى هو المسمَّى بعينه.

ويُسأل القائلون قولَ من حكينا قولَه هذا، فيقال لهم: أتستجيزون في العربية أن يقال: "أكلتُ اسمَ العسل"، يعني بذلك: أكلت العسل، كما جاز عندكم: اسم السلام عليك، وأنتم تريدون: السلامُ عليك؟

فإن قالوا: نعم ! خرجوا من لسان العرب، وأجازوا في لغتها ما تخطِّئه جميع العرب في لغتها. وإن قالوا: لا سئلوا الفرقَ بينهما: فلن يقولوا في أحدهما قولا إلا أُلزموا في الآخر مثله"(٥٢).

والكلمة الثالثة: "الله" ذات مقطعين: منغلق قصير ومنغلق طويل.

وهما: "اَلْ" (ص+ح+ص) أي (cvc) و "لَاه" (ص+ح:+ص) أي (cv:c). كلاهما منغلقان أي ينتهيان بصامت، والفرق بينهما أن الأوّل فيه حركة قصيرة وفي الثاني حركة طويلة.

نعثر على بذرة البحث في المصادر التفسيرية القديمة حول هذه الكلمة، من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ما ورد في **جامع البيان** للطبري عنه، قال: "الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين"(٥٣). وعليه انبنى رأي الطبري: "هو الذي يَألَهه كل شيء، ويعبده كل خلقٍ"(٥٤).

وأمّا من حيث بنية الكلمة فلا نجد في ديوان العرب من "فعل يفعل" سماعاً، كما يعترف به الطبري، ولكنّ هذا البناء فقط من قبل الاستدلال. ويقول أن العرب قد استخدموا "تألّه" للعبادة وطلب ما عند الله، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج(٥٥):

لله درُّ الغانياتِ الُمدَّهِ سبحَّنْ واسترْ جَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي(٥٦)

٥٢- المرجع السابق، ١/ ١١٩ - ١٢٠.

٥٣- المرجع السابق، ١/ ١٢٣، والسند فيه: عن الطبري عن أبي كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس. ونقله السيوطي في **الدر المنثور**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ١/ ٢٩.

٥٤- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٢.

٥٥- رؤبة بن العجاج: هو أبو محمد رؤبة بن العجاج بن عبد الله بن رؤبة البصري التميمي السعدي، هو وأبوه راجزان مشهوران، لكل منهما ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان رؤبة بصيراً باللغة قيماً بحواشيها وغريبها، قد أدرك زمن الدولتين: الأموية والعباسية، وكان مقيماً بالبصرة ثم خرج إلى البادية، فأدركه أجله عندما وصل إلى الناحية التي قصدها في سنة ١٤٥هـ وكان قد أسنّ. **سير أعلام النبلاء**، ٦/ ١٦٢، **الأعلام**، ٣/ ٣٤.

٥٦- البيت في **ديوان رؤبة بن العجاج**، اعتناء وليم بن الورد الروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، دون تاريخ، ص ١٦٥، من قصيدة قالها في وصف نفسه، المده: جمع ماده. ومده فلانًا يمدهه مدهًا: نعت هيئته وجماله وأثنى عليه ومدحه. و استرجعن: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون. يقلنها حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا، بعد الذي كان من شبابه وجماله وصبوته!

يعني: من تعبدي وطلبي اللهَ بعملي[٥٧].

ثم يقول: "ولا شك أن "التألّه" التفعُّل من "أَلَه يأله"، وأن معنى أله ـ إذا نُطق به: ـ عَبَدَ اللهَ. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ: فعل يفعل، بغير زيادة"[٥٨]. ويستدلّ عليه برواية سفيان بن وكيع قال: حدثنا أبي، عن نافع بن عُمر، عن عَمرو بن دينار، عن ابن عباس: "أنه قرأ "وَيَذَرَكَ وإلاهَتَكَ"[٥٩]، قال: عبادتَك، ويقال: إنه كان يُعبَد ولا يَعبُد"[٦٠].

وكذلك كان عبدُالله يقرؤها ومجاهد. وقال مجاهد: وعبادتَك[٦١].

ثمّ يقول الطبري شارحاً هذه الروايات: "ولا شك أن الإلاهة مصدرٌ من قول القائل: أَلَه اللهَ فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عَبدَ الله فلانٌ عبادةً، وعَبَرَ الرؤيا عبارةً. فقد بيَّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا: أن "أله" عَبد، وأن "الإلاهة" مصدرُه"[٦٢].

الله من كلام العرب: أصله: الإله، إليه ذهب الطبري و استشهد بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾[٦٣] لما ذهب إليه. فيقول: "أصله: لكن أنا، هو الله ربي، كما قال الشاعر:

وَتَرْمِينَنِي بالطَّرْف، أَيْ أَنتَ مُذْنبٌ وتَقْلِينَني، لكِنَّ إياكِ لا أَقْلِي[٦٤]

يريد: لكن أنا إياك لا أقلي، فحذَف الهمزة من "أنا" فالتقت نون "أنا" ونون "لكنْ" وهي ساكنة، فأدغمت في نون "أنا" فصارتا نونًا مشددة. فكذلك "الله" أصله "الإله"، أسقطت الهمزةُ التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة،

٥٧- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٣.

٥٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٥٩- وفي المصحف: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

٦٠- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٣، ورواية أخرى في ١/ ١٢٤، برواية: سفيان، قال: حدثنا ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن محمد بن عمرو بن الحسن، عن ابن عباس: "وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَك"، قال: إنما كان فرعونُ يُعبَد ولا يَعبُد.

٦١- والرواية في **جامع البيان** للطبري، ١/ ١٢٤- ١٤٤ وفيه: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: أخبرني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد: قوله "ويذرَكَ وإلاهتك" قال: وعبادتَك.

٦٢- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٤.

٦٣- سورة الكهف، الآية: ٣٨.

٦٤- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٥.

فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة، كما وصفنا من قول الله: لكنَّ هوَ الله رَبي"(٦٥).

هي أولى الجهات التي جاءت في اشتقاق كلمة "الله" ومن الملحوظ في تفاسير المتأخرين أنهم قالوا فيها قولين: أوّلاً: أنها مرتجلة، والثانية أنها مشتقّة، والذين يرونها مشتقّة انقسموا إلى رأيين: أوّلاً: أنها مشتقة من "أله يأله" كما مرّ. وثانياً: أنها مشتقة من "لاه" وعليه أدخلت لام التعريف فصارت "الله". واشتقاقه من "لاه يليإذا تستر ّ كأنه ـ تعالى ـ يسمّى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار. ولهذا المعنى استشهد ببيت شعرٍ لذي الإصبع العدواني(٦٦):

لَاهِ ابنُ عَمِّكَ لاَ أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ عنِّي ولا أنتَ دَيَّاني فتَخزوني(٦٧)

وأمّا الكلمة الرابعة والخامسة: "الرّحمن" و "الرّحيم"، فكلٌّ واحدٍ منهما ذات ثلاثة مقاطع، "الرّحمن" على منغلق قصير و منغلق قصير ومنغلق طويل، وهي: "اَرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، و "رَحْ" (ص+ح+ص) (cvc) و "مَان" (ص+ح:+ص) (cv:c).

و"الرّحيم" ذات مقاطع: منغلق قصير ومفتوح قصير ومنغلق طويل، وهي: "اَرْ" (ص+ح+ص) (cvc) و "رَ" (ص+ح) (cv) و "حِيْم" (ص+ح:+ص) (cv:c).

لا خلافَ بين أحدٍ من المفسّرين واللغويين أن كلتي الكلمتين من الرّحمة على وزن فَعْلان و فَعِيل على وجه الترتيب. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّحْمَنُ الْفَعْلانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ(٦٨).

٦٥- المرجع السابق، ١/ ١٢٥ - ١٢٦.

٦٦- انظر للتفصيل: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ١/ ١٥٨، وأمّا ذو الإصبع العداواني فهو حُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر. وهو شاعر حكيم شجاح جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عدّ في المعمرين. الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ١٧٣.

٦٧- انظر: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، **المفضليات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٧، بدون تاريخ، ٧٠. لاهِ: لله. وأفضلت أي تجاوزت في الفضل وديّان: القيّم بالأمر وتخزوني: تسوسني، من خزا يخزو خَزواً: ساسه وقهره وملكه.

٦٨- انظر: **تفسير ابن أبي حاتم**، ١/ ٢٥، وفيه: حدثنا عِلِي بن طاهر، ثنا محمد بن العلاءِ يعني أبا كريب الهمداني، ثنا عثمانُ بنُ سعيدٍ يَعْنِي الزياتَ الْكوفيَّ، ثنا بشرُ بنُ عمارَةَ، عنْ أَبِي روقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: بِسْمِ الله ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ رَبِّكَ وَقُمْ وَاقْعُدْ بِذِكْرِهِ بِسْمِ اللهِ الرحمن، قَالَ: يَقُولُ :الرَّحْمَنُ: الْفَعْلانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ".

وفي **تفسير غريب القرآن** لابن قتيبة: "الرّحمن الرحيم: صفتان مبنيتان من الرحمة"(٦٩).

يقول الطبري في بنية "الرحمن" فهو ما قال به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فيقول: "وأما "الرحمن" فهو فَعلان من رَحم"(٧٠). ثم يبين سنة العرب في هذه البنية فيقول: "والعرب كثيرًا ما تبني الأسماء من "فَعِل يفْعَل" على فعلان، كقولهم من غَضِب: غَضبان، ومن سَكر: سكران، ومن عَطش: عطشان. فكذلك قولهم "رَحمن" من رَحِمَ"(٧١). وأما الرحيم فيقول الطبري فيه: " و"الرحيم" فعيل منه أي رَحِمَ يَرْحَمُ". ويقول أيضاً: "وقيل "رحيم"، وإن كانت عَين "فعِل" منها مكسورة، لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء ـ إذا كان فيها مدح أو ذم ـ على "فعيل"، وإن كانت عين "فعل" منها مكسورةً أو مفتوحةً، كما قالوا من "علم" عالم وعليم، ومن "قدَر" قادر وقدير"(٧٢).

وأمّا في دلالة الكلمة ففيه أقوال: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، "الرحمن الرحيم: الرقيقُ الرفيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنُف عليه"(٧٣).

ويقول أبو عبيدة فيهما في **مجاز القرآن**: "الرَّحْمَن مجازه ذو الرحمة"، و"الرَّحِيم مجازه الرّاحم"(٧٤). وهو على رغم بيان المعنيين المختلفين للكلمتين المختلفتين المشتقّتين من أصل واحدٍ، لا يفرِّق بينهما فيسهب قائلاً مبيِّناً سنّة العرب فيه: "وقد يقدّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتّساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم" ثم يبيِّن استخدام الكلمتين في أبيات عربية مختلفة،

٦٩- في باب اشتقاق أسماء الله وصفاته، وإظهار معانيه انظر ابن قتيبة: **تفسير غريب القرآن**، ص ٦.

٧٠- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٦.

٧١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٢- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٣- انظر: المرجع السابق، ١/ ١٢٩، وفيه: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن، الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب. قال: الرّحمن الرحيم: الرقيقُ الرفيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنُف عليه. وكذلك أسماؤه كلها. ومثلها في **تفسير ابن أبي حاتم**، ١/ ٢٦ وفيه: حَدَّثَنَا ابْنُ طَاهِرٍ، ثنا محمّد بن الْعلاء يعني أَبا كريْب الهمداني، ثنا عثمان بن سعيد يعْني الزيات، ثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: "أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له جبريل: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يقول: الرَّحِيم: الرَّقِيقُ الرَّفِيقُ لِمَن أحبَّ أَنْ يَرْحمه، البعيدُ الشَّدِيدُ على من أحبَّ أنْ يعَنِّفَ عليه الْعذاب".

٧٤- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ٢١.

ومنها: قول البُرْج بن مُسْهِر الطائيّ الجاهلي(٧٥):

ونَدْمانٍ يزيد الكأسَ طِيباً سَقيتُ وقد تغوَّرت النجومُ

وقول النُعْمان بن نَضْلَة(٧٦)، عَدويٌّ من عَدي قُريش:

فإن كنتَ نَدْماني فبالأكبر أسْقِني ولا تَسقِني بالأصغر المُتَثلمِ

وقول بُرَيق الهذليّ(٧٧):

رُزينا أبا زيدٍ ولا حيَّ مِثْلَه وكان أبو زيد أخي ونديمي(٧٨)

وقول حَسّان بن ثابت(٧٩):

لا أخدِشُ الخَدْش بِالنَّديمِ ولا يَخْشَى نَدِيمي إذا انتشيتُ يَدِي(٨٠)

وبنقل موجز هذا القول يكتفي ابن قتيبة في **تفسير غريب القرآن** له فيقول: "قال أبو عبيدة: وتقديرهما: ندمان ونديم".

٧٥- البُرج بن مسهر بن جلاس بن الأرث الطائي: شاعر، من معمّري الجاهلية. كانت إقامته في ديار طيء بنجد. اختار أبو تمام في **حماسته** أبياتاً من شعره. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ٤٧.

٧٦- هو النعمان بن عديّ بن نضلة العدوي: شاعر صحابي، من الولاة. هاجر مع أبيه إلى الحبشة، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على "ميسان" ولم يولّ عمر أحداً من قومه (بني عديّ) غيره، لما كان في نفسه من صلاحه. توفّي سنة ٣٠ من الهجرة. **الإصابة**، ٦/ ٢٤٣ و **الأعلام**، ٨/ ٣٨.

٧٧- هو البُريق بنُ عِياضِ بْنِ خُوَيلِدِ الخُنَاعِيُّ، له شِعرٌ. انظر: أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، **شرح أشعار الهذليين**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج ومحمود شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، الجزء ٢، ص ٧٤١ ـ ٧٦٠.

٧٨- والبيت في قصيدة قالها في رثاء أخيه، انظر: **ديوان الهذليين**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م، ٣/ ٦١، و**شرح أشعار الهذليين**، ٢/ ٧٤٥، والبيت فيهما:

أَصَبْنَ أَبَا زَيدٍ وَلَا حَيَّ مِثْلَهُ وَكانَ أَبُو زيدٍ أَخِي ونَدِيمي

٧٩- هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك ابن النجار الأنصاري الخزرجي ثمّ النجاري، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن سعد: عاش في الجاهلية ستين وفي الإسلام ستين ومات وهو ابن عشرين ومائة. **الإصابة**، ٢/ ٨ – ٩.

٨٠- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ٢١ – ٢٢، وانظر: عبد الرحمن البرقوقي، **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م، ص ١١٢، وفيه:

لَا أَخْدِشُ الخَدْشَ بِالنَّدِيمِ وَلا يَخْشَى جَلِيسِي إِذَا انْتَشَيْتُ يَدِي

ففحوى القول أن الرّحمن والرّحيم صفتان مشتقّتان من أصل واحدٍ "رحم" وذلك لاتّساع الكلام عند العرب، وهذا عندهم شائع جدّاً مثلاً قالوا: ندمان ونديم وغير ذلك.

من هذا الشرح ينشأ هنالك سؤال عن أسلوبية القرآن الكريم وهي فائدة تكرار هذين الاسمين المشتقّين من أصل واحدٍ أي "رحم" ويقول فيه أبو عبيدة أنهما لفظان بمعنى واحدٍ، وكيف وقع ذلك في القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي لا تطويل فيه ولا إسهاب ولا حشو؟ ولم هذا التكرار للفظين من أصل واحدٍ والمعنى واحدٌ؟ يجيب عنه الطبري في **جامع البيان**: "لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها"(٨١). ثم يسوق الطبري تلك الروايات المأثورة والأخبار المنقولة التي يعتمد الطبري عليها في ابتناء رأيه هذا على ثلاثة تأويلات: أوّلاً: تلك الآثار التي تدلّ على أن الرحمن يدل على عموم الرحمة، والرّحيم على خصوص الرحمة(٨٢). ثانياً: تأويل ابن عباس المذكور في معنى الرّحمن والرّحيم، فيقول الطبري: "وهذا التأويل من ابن عباس، يدل على أن الذي به ربُّنا رحمن، هو الذي به رحيم، وإن كان لقوله "الرحمن" من المعنى، ما ليس لقوله "الرحيم". لأنه جعل معنى "الرحمن" بمعنى الرقيق على من رقَّ عليه، ومعنى "الرحيم" بمعنى الرفيق بمن رفق به"(٨٣). وثالثاً: ثم يبيِّن السبب الآخر بتأويل عطاء الخراساني يقول: "كان الرحمن، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمنَ الرحيمَ"(٨٤).

ويشرح الطبري هذا القول بقوله: "والذي أراد، إن شاء الله، عطاءٌ بقوله هذا: أن الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمَّى بها أحد من خَلقِه، فلما تسمَّى به الكذابُ مسيلمة ـ وهو اختزاله إياه، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه ـ أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه "الرحمنُ الرحيمُ" ليفصِل بذلك لعباده اسمَهُ من اسم من قد تسمَّى بأسمائه، إذ كان لا يسمَّى أحد "الرحمن الرحيم"، فيجمع له هذان الاسمان، غيره جلّ ذكره. وإنما يتسمَّى بعضُ خَلقه إما رحيما، أو يتسمَّى رَحمن. فأما "رحمن رحيم"، فلم يجتمعا قط لأحد سواهُ، ولا يجمعان لأحد غيره. فكأنّ معنى قول عطاء هذا: أن الله جل ثناؤه إنما فَصَل بتكرير الرحيم على الرحمن، بين اسمه واسم غيره من خلقِه، اختلف معناهما أو اتفقا"(٨٥).

٨١- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٦.

٨٢- المرجع السابق، ١/ ١٢٧ - ١٢٩.

٨٣- المرجع السابق، ١/ ١٢٩.

٨٤- المرجع السابق، ١/ ١٣٠، وفيه: "حدثني به عمران بن بكّار الكلاعي، قال: حدثنا يحيى بن صالح، قال: حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللَّخمي من أهلِ فلَسْطين، قال: سمعت عطاء الخراساني يقول ...".

٨٥- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٣٠.

ثمّ يعلّق الطبري على قول عطاء الخراساني بقوله: "والذي قال عطاءٌ من ذلك غيرُ فاسد المعنى، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه خصّ نفسه بالتسمية بهما معًا مجتمعين، إبانةً لها من خلقه، ليعرف عبادُه بذكرهما مجموعينِ أنه المقصود بذكرهما دون مَن سواه من خلقه، مع مَا في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما"(٨٦).

وأمّا قول أبي عبيدة في **مجاز القرآن** "أن الرحمن مجازه ذو الرحمة، و الرحيم مجازه الراحم"، وقوله: "قد يقدِّرون اللفظين من لفظٍ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم"، فيردّ عليه الطبري ويقول: "ولا شك أن ذا الرحمة هو الذي ثَبت أن له الرحمة، وصحَّ أنها له صفة، وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم، أو قد رحم فانقضى ذلك منه، أو هو فيه"(٨٧).

وبحثنا الأخير في البسملة هو البحث الأسلوبي الآخر: سبب تقديم اسم "الله" على صفتيه "الرّحمن الرّحيم" وتأخير صفته "الرّحيم" من صفته "الرّحمن".

لا نجد هذا البحث عند أحد من المفسّرين المذكورين سوى الطبري فهو يقول في هذه المسألة: "قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مُخبَر عنه، أن يقدِّموا اسمه، ثم يتبعوه صفاتِه ونعوتَه. وهذا هو الواجب في الحكم: أن يكون الاسم مقدَّمًا قبل نعته وصِفَته، ليعلم السامع الخبرَ، عمَّن الخبرُ"(٨٨).

ثم يستطرد فيها الطبري فيقول: "وكانَ لله جلَّ ذكره أسماءٌ قد حرَّم على خلقه أن يتسمَّوا بها، خَصَّ بها نفسه دونهم، وذلك مثلُ "الله" و "الرحمن" و "الخالق"، وأسماءٌ أباحَ لهم أن يُسمِّيَ بعضهم بعضًا بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء ـ كان الواجب أن تقدَّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه، ليعرف السامعُ ذلك مَنْ تَوجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجَّه إليه ما يتلو ذلك من المعاني. فبدأ الله جل ذكره باسمه الذي هو "الله"، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجهٍ من الوجوه، لا من جهة التسمِّي به، ولا من جهة المعنى. وذلك أنا قد بيَّنَّا أن معنى "الله" تعالى ذكره المعبود، ولا معبودَ غيرُه جل جلاله، وأن التسمِّي به قد حرّمه الله جل ثناؤه، وإن قصد المتسمِّي به ما يقصدُ المتسمِّي بسعيد وهو شقي، وبحسَنٍ وهو قبيح.

٨٦- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٨٧- المرجع السابق، ١/ ١٣٢.

٨٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

أوَلا تَرى أن الله جلّ جلاله قال في غير آية من كتابه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(٨٩) فاستكبر ذلك من المقرِّ به، وقال تعالى في خُصوصه نَفسَه بالله وبالرحمن: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٩٠).

ثم ثنَّى باسمه الذي هو الرحمن، إذ كان قد مَنع أيضًا خلقه التسمي به، وإن كان من خلقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممّن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحد دونه. فلذلك جاء الرحمن ثانيًا لاسمه الذي هو "الله".

وأما اسمه الذي هو الرحيم فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصف غيره به. والرحمة من صفاته جل ذكره، فكان ـ إذ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ واقعًا مواقع نعوت الأسماء اللواتي هنّ توابعُها، بعد تقدم الأسماء عليها. فهذا وجه تقديم اسم الله الذي هو "الله"، على اسمه الذي هو "الرحمن"، واسمه الذي هو "الرحمن" على اسمه الذي هو "الرحيم"(٩١).

وفي بيان الطبري المذكور توضيح لا يحتاج إلى بيان مزيد، وشرح لا حاجة إلى الكلام فيه والتعليق عليه، إذ فيه كفاية.

وإن الدراسات اللسانية الحديثة تهتمّ بـ: الصوتيات وبنية الكلمة وبناء الجملة والدلالة والأسلوب، ونحن في هذه الدراسة الموجزة لنرى أن في كتب المفسِّرين المتقدِّمين ثروة وفيرة بهذا الصّدد، وهي لغنيّة بكلِّ أبحاثٍ لسانيّة، وأمّا المفسّرون المتأخِّرون فزادوا في تلك الأبحاث حتى أسهبوا فيها وطوّلوها أكثر من الضرورة وصارت تفاسير أكثرهم أقرب من كتب اللغة والنحو والبلاغة من كتب التفسير. وما من دراسة لسانية حديثة إلا نجد بذرتها في أمّهات كتب تفسير القرآن الكريم التي دونت في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية على صاحبها الصلوة والسلام.

وبعد أن حللنا الكلمات الخمس التي تشتمل عليها آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب أصول علم الأصوات الحديثة مستقلّةً في حالة الإفراد لنجد عشرة مقاطع، كلمتان أوليان "بِ، اسم" تشتمل كل واحدةٍ منهما على مقطعٍ واحدٍ، والثالث "الله" على مقطعين و الرّابع والخامس "الرّحمن، الرّحيم" تشتمل كلُّ واحدةٍ منهما على ثلاثة مقاطع، فمجموع المقاطع عشرة:

٨٩- سورة النمل، الآية: ٦٠- ٦٤.

٩٠- سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

٩١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[قصير]+[عنقودي]+[متوسط+طويل]+[متوسط+متوسط+طويل]+[متوسط+قصير+طويل].

أربعة مقاطع متوسطة وثلاثة طويلة ومقطعان قصيران ومقطع عنقودي.

وأمّا الفونيمات فهي هكذا:

[ص+ح]+[ص+ح+ص+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح+ص / ص+ح+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح/ ص+ح+ص]

فمجموع الصوامت في هذه المقاطع العشرة:

(١)+(٣)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(١)+(٢)=(١٩)، ومجموع الحركات: ١×١٠=١٠ ـ سبع منها قصيرة وثلاث طويلة ـ فهنالك تسعة وعشرون فونيما في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب التحليل الإفرادي.

وأمّا إذا قمنا بالتحليل التركيبي فالنتيجة كالآتي:

"بِسْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "مِلْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "لَا" (ص+ح:) (cv:)، "هِرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَحْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "مَا" (ص+ح:) (cv:)، "نِرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَ" (ص+ح) (cv)، "حِيْم" (ص+ح:+ص) (cv:c). تسعة مقاطع: [منغلق قصير، منغلق قصير، منفتح طويل، منغلق قصير، منغلق قصير، منفتح طويل، منغلق قصير، منفتح قصير، منغلق طويل] ستة مقاطع منغلقة ومنها: خمسة مقاطع قصيرة وواحد طويل، وثلاثة مقاطع منفتحة: طويلان و قصير.

وأمّا الفونيمات فهي أربعة وعشرون فونيماً، منها خمسة عشر صامتاً وتسع حركات: ثلاث حركات طويلة و ستّ حركات قصيرة.

ففي حالة التركيب جاء تخفيف مقطع واحدٍ وأربعة فونيمات.

وأمّا السبب لهذا النقص أو التخفيف في الحالة التركيبية فهو حذف همزات الوصل في: "اسم، الله، الرحمن، الرحيم". هذه أربع همزات ولكنّ مبلغ التخفيف خمسة فونيماتٍ فسببه أن همزة "اِسْم" حذفت مع حركتها ولم يُفِدْها تركيبها بكلمة سابقة بحركة إضافية حسب القواعد العربية أنه لا يجتمع الساكنان، وأمّا الهمزات الثلاث الأخيرة فحدث فيها ما حدث في الأولى ولكنّها استفادت كلماتها حركةً بسبب تركيبها بما قبلها، فهذه الهمزات الأخريات تسبّبت في حذفِ صامت واحدٍ وأمّا الهمزة الأولى فبسببها حُذفت حركة مع صامت. فالنتيجة أن هذه الكلمات الخمس التي تشتمل عليها آية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اكتسبت ثلاثة فونيمات (ح،ح،ح) وخَسِرَت ثمانية أخرى (ص+ح،ص+ح، ص+ح،

ص+ح) حتى صارت بعد التركيب (٢٩-٨+٣=٢٤) أربعة وعشرين فونيماً.

ومن الملاحظ في الكلمات العربية أن الحرف الساكن يتبع المقطع الذي يسبقه أما إذا حُرِّكَ بسبب التركيب أو الآخر فإنَّه يكون مقطعاً مستقلاً إن كان الحرف اللاحق متحرّكاً، وإن كان ساكناً فيشكِّل معه مقطعاً جديداً، مثلاً: "م" في "اسم" كان في حالة الإفراد مع سابقيه جزءاً من مقطع "اسم" وأمّا إذا جاء في حالة التركيب فتركّب مع اللاحق (ل)وشكّل مقطعاً جديداً، هكذا "ن" في "الرّحمن".

Abstract

Linguistic Studies of *Basmalah* in the First Three Centuries

Studies in modern linguistics mostly relate to phonetics, the structure of the word (Morphology), structure of the sentence (Syntax) and Semantics. This article tries to highlight worthy contributions of the Qur'ānic exegets of the first three centuries A.H.

Seeing their abundant and profound knowledge and its application to the interpretation of the Qur'ān, we feel compelled to acknowledge their great contribution to the modern linguistics and we come to know that all the sciences of Arabic Language like Arabic sounds, morphology, syntax, semantics, and rhetorics etc. emerged to understand the Holy Qur'ān and to attain the best knowledge of the meanings and concepts it contains. Therefore, whoever wanted to interpret the meanings of the Holy Qur'ān is compelled to acquire profound knowledge of these sciences of Arabic language. Thus there is a strong correlation and inseparability between the Arabic sciences and the Qur'ānic sciences.

We find that the contributions of the interpreters of the Qur'ān in the first three centuries to the above fields are praiseworthy in that these laid the basic and firm foundations of the linguistics.

The commentaries on the Qur'ān written in the first three centuries after *Hijrah* have been the authentic source for the understanding of the Qur'ān. Hence, these commentaries should be relied upon for the linguistic study of the Qur'ān and Arabic literature as well. This article presents the linguistic study of *Basmalah* in the light of the Qur'ānic commentaries of the above

mentioned era in order to illustrate the extent of Muslims' literary and linguistic contribution to the knowledge of the Qur'ān.

****